Archive of SID

أ.د.محمد علي آذرشب
أستاذ في جامعة طهران

الشهيدان برؤية حضارية

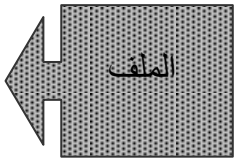

العودة إلى التاريخ ـ إذا كان بذهنية واعية ـ تستطيع أن تكون فرصة للانطلاق نحو المستقبل، خاصة حين نتناول أسباب التقدم والتخلف على الساحة التأريخية، وحين نحاول اكتشاف السنن التي تتحكم في هذه الساحة.

أصحاب المدارس الفكرية، الإسلاميون منهم وغير الإسلاميين اتجهوا إلى اكتشاف هذه السنن لتوضح لهم معالم الطريق. السيد الشهيد محمد باقر الصدر عمد إلى ذلك في محاضراته عن *التفسير الموضوعي*، وقبله حاول ماركس في *رأس المال*، وبعده فوكوياما في *نهاية التاريخ والإنسان الأخير*.

www.SID.ir

Archive of SID

تاريخ الأمم والشعوب، بل والأفراد، يستطيع أيضًا أن يكشف لنا حقائق هامة في هذا الصدد، وكان للمسلمين اهتمام بهذا الأمر منذ القديم على نحو ما فعل ابن خلدون في *العبر* وابن مسكويه في *تجارب الأمم*.

الاهتمام بهذا الأمر يقوم على خلفية ضرورة الاستفادة من الماضي للانطلاق نحو بناء المستقبل. وهذه هي الرؤية الحضارية لتأريخ الأفراد والجماعات.. فالحضارة في فهمنا هي نتاج الحركة المستقبلية للإنسان في المجال المعنوي والمادي، وهذه الحركة المستقبلية وليدة طبيعة الإنسان الحية التواقة إلى الكمال.

نحن اليوم أمام شخصيتين في تأريخنا العلمي استطاعا أن يخلدا على مرّ القرون، وتذكرهما الأجيال بإكبار وإجلال لما قاما به من دور علمي وعملي. فما هو سبب ارتفاعهما إلى مستوى البقاء والخلود والعطاء المستمر. نحن نعتقد أن السبب يعود إلى أن المشروع الحضاري الإحيائي الإسلامي قد تجلى فيهما فكانا حيين وإحيائيين.

معنى الإحياء:

www.SID.ir

الإحياء هو هدف الإسلام النهائي، بل ويمكن

Archive of SID

تلخيص المشروع الإسلامي بأجمعه في الإحياء لقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّه وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ والإحياء هو تفعيل «نفخة روح رب العالمين» في الكائن الإنساني.

القرآن يرى أن الإنسان مخلوق من طين: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾ وهذا الطين يمثل الجانب الهابط من الإنسان ـ كما يقول الشهيد الصدر ـ وفيه نفخة من روح رب العالمين: ﴿فإذا سويتهُ ونفخت فيه من روحي﴾ وهذه النفخة تؤهّل الإنسان لأن يتكامل ماديًا ومعنويًا، دون حدّ لهذا التكامل.

إذا ابتعد الإنسان عن المثل الأعلى السامي فإنه يقبع في الظلمات، ويعيش لأهوائه وشهواته، ويكون مثله الأعلى ـ أو إلهه بالتعبير القرآني ـ هواه: ﴿أرأيتَ من اتّخذ إلهه هواهُ﴾؟!

الدين ينتشل الإنسان من الظلمات إلى النور: ﴿ يُخرِجُهم مّن الظُّلمات إلى النور﴾، وفي النور يرى الجمال فيعشق ويتحرك نحو المثل الأعلى المطلق سبحانه.. نحو البناء الحضاري.

www.SID.ir

الذاتية:

Archive of SID

الذاتية هي الانغماس في خصلة الطين، وهي أكبر صنم يقف حائلاً أمام تكامل الإنسان والمجتمع.

والاحيائيون جميعًا حاولوا تحرير الإنسان من هذه الذاتية الضيقة، وتحريكه نحو مثل أعلى خارج ذاته، وإيجاد الدافع لهذه الحركة.

الإنسان الغارق في ذاتياته قد يتحرك في مسير يبدو أنه يستهدف خدمة دينية أو اجتماعية، لكنه في الواقع يكرّس ذاته. وهذا هو «الرياء» الذي دعا الإسلام إلى محاربته في النفس، وأطلق على هذه الحرب اسم «الجهاد الأكبر».

الذاتية تحول دون بروز مظاهر الحياة في الفرد والمجتمع، بل تؤدي إلى التخلف على المستوى الفردي والاجتماعي، وإلى ألوان الصراع والنزاع، وألوان السلبيات السلوكية كالحقد والحسد.

مظاهر الحياة الحضارية وتجلياتها في حياة الشهيدين:

التعارف:

التعارف في المنظور القرآني هو سبب التنوع في البشرية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

www.SID.ir

Archive of SID

وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ واضح أن التعارف هنا يعني «التبادل المعرفي». فالله سبحانه شاء أن يكون كل من الذكر والأنثى ذي طبيعة خاصة، ومعرفة أحدهما الآخر يشكل قاعدة هامة للتكامل والنماء الإنساني. وهكذا الشعوب والقبائل لكل منها من المعارف ما يحتاجه الآخر. والتعارف بينها يؤدي إلى النماء والكمال. ولعلّ ذلك هو سبب قيام الحضارات بعد هجرات الشعوب من مكان لآخر، إذ يؤدي ذلك إلى تعارف الشعوب.

ومن الطبيعي أن التعارف يتطلب حياة تخرج الإنسان من محيطه المحدود، وتجعله ينطلق في الكون الفسيح. وفي حياة الشهيدين الأول والثاني نرى مظاهر حركة دائبة على ساحة العالم الإسلامي. الشهيد الأول يغادر جبل عامل إلى الحلة ثم إلى بغداد ودمشق والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ومقام إبراهيم، والشهيد الثاني غادر جبل عامل إلى دمشق ثم إلى مصر وإلى بيت المقدس.

هذه الحركة العلمية الدائبة مظهر هام من مظاهر التعارف والتكامل والتحضّر. لقد كانت قائمة على صعيد العلماء والأدباء بقوة في عصر ازدهارنا الحضاري، نلمس ذلك من حركة

www.SID.ir

Archive of SID

العلماء بين خراسان والأندلس، وحركة العلماء بين حواضر العالم الإسلامي. كان هذا التحرك قائمًا رغم مشاق السفر وأخطاره.

ولابدّ ونحن نستشرف مستقبلنا الحضاري أن نجعل خروج العلماء من بيئتهم المحدودة أحد معايير التقويم العلمي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تتوفر للعلماء والمثقفين سبل التواصل العلمي والثقافي، خاصة ونحن نعيش إرهاصات ربيع إسلامي تتجه فيه رقابات القوى الطاغية وضغوطها نحو الزوال.

الاستماع:

الاستماع يحتاج إلى الخروج من الذاتية. فالغارق في ذاتيته يتكلم فقط، ولا يسمع. وإذا رأيته ساكتًا أمام مُحاور يكلّمه فإنه يتكلم مع نفسه ليردّ. فلات ثمة استماع. والسبب ـ كما ذكرنا ـ هو الذاتية التي تتحول إلى صنم وإلى طاغوت بالتعبير القرآني. السماع يتحقق حين يتحقق اجتناب الطاغوت. والقرآن الكريم يذكر هذه العلاقة بوضوح في آيتين متواليتين، يقول سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

www.SID.ir

Archive of SID

في حياة الشهيدين نرى شوقًا إلى الاستماع، أو مايسمى اليوم الانفتاح على الآخر. فقد حرصا على أن يستمعا للآخر في الفقه والحديث والقراءات والعلوم الأخرى. كما أنهما درّسا الفقه والحديث على غير مذهبهما، ودرّسا الفقه المقارن على المذاهب الخمسة.

الفكر المقاصدي:

فكر الإنسان الذي يعيش لذاتياته ضيّق، لأنه يدور في إطار المصلحة الشخصية. الإسلام لدى الذاتيين يتحول إلى دكان، وهؤلاء يحاربون كل من يهدّد دكانهم بخطر. أما المتحررون من ذاتيتهم فيتجهون إلى التفكير في مقاصد الإسلام الكبرى.

الاتجاه الفكري لدى الشهيدين نحو واجب العلماء في رعاية شؤون الأمة والدفاع عن مقدراتها وتطبيق الشريعة ضمن مشروع ولاية الفقيه يأتي في هذا السياق.

الوحدة:

الوحدة من مظاهر الحياة، فالجسم الحيّ مترابط في وحدة عضوية «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». والإحيائيون يميلون دائمًا إلى البحث عن سبل

www.SID.ir

Archive of SID

الوحدة والوئام والاشتراك، والذين يفتقدون عناصر الحياة يميلون إلى التمزيق والتفتيت والبحث عن المستفزات ومواطن الافتراق. وإذا وجدتهم يأتلفون مع أحد فإنما يتخذونه شقة أخرى من المقصّ فيكونون معه كشقي مقصّ تجمعتا على غير شيء سوء التفرقة.

في حياة الشهيدين مظاهر بارزة للوئام بين الأمة، نجده في موقفهم من الدولة العثمانية وفي ارتباطهم بعلماء العالم الإسلامي، وفي خطابهم العلمي والثقافي، وهي تبلور هذه الروح الحيّة الحضارية التوّاقة إلى وحدة الأمة.

العشق:

العشق من أبرز مظاهر الحياة. وهو الحرقة التي تضطرم في نفس الإنسان شوقًا إلى الجمال، ومن مظاهر العاشق أنه يعزف عن البطر والراحة والدعة، ويتحرك نحو كل جميل من كرم وأريحية وإباء نفس وعطاء وانسجام ووئام. نلاحظ ذلك في سيرة العاشقين جميعًا، ومنهم الشهيدان. الشهيد الأول ينشد ما يبيّن ارتفاعه إلى مستوى كبار العاشقين يقول:

ليس التصوّف عُكازًا كلا ولا الفقر رؤيا
ومسبحة ذلك الشرف

www.SID.ir

Archive of SID

وأن تروح وتغدو في وتحتها موبقاتُ
مرقّعة الكبر والسَّرف
وتُظهر الزهد في عكوفها كعكوف
الدنيا وأنت على الكلب والجيف
الفقر سرٌّ وعنك فارفع حجابك تجلو
النفس تحجبُهُ ظلمه التلف
وفارق الجنس وأقر وغبْ عن الحسّ واجلب
النفسَ في نفسٍ دمعة الأسف
واتل المثاني ووحّد ذكر الحبيب وصف ما
إن عزمت على شئت واتصف
إلى أن يقول:
وإن سقاك مدير كأس التجلّي فخذ
الراح من يده بالطاس واغترف
واشرب وإسق ولا فإن رجعت بلا
تبخل على ظمئ ريٍّ فوا أسف

ولعل ما ذكر من اهتمام الشهيد الأول بأسرته علميًا وفقهيًا وسلوكيًا يصبّ في صفة العاشقين، فزوجته أمّ عليّ فقيهة وابنته ستّ المشايخ فقيهة.

وما ذكره الملازمون للشهيد الثاني يدلّ على ذوبانه في المعشوق. قيل عنه: «لم يصرف لحظة من عمره إلا في اكتساب فضيلة. ووزع أوقاته على ما يعود نفعه في اليوم والليلة إليه. أما النهار ففي تدريس ومطالعة

www.SID.ir

Archive of SID

وتصنيف ومراجعة، وأما الليل وفيه استعداد كامل لتحصيل ما يبتغيه من الفضائل» «هذا الى غاية اجتهاده في التوجّه إلى مولاه، وقيامه بأوراد العبادة حتى تكلّ قدماه، وهو مع ذلك قائم بالنظر في أحوال معيشته على أحسن نظام، وقضاء حوائج المحتاجين بأتمّ قيام، يلقى الأضياف بوجه مسفر عن كرم كانسجام الأمطار».

وقال من لازمه أيضًا: «ولقد شاهدت منه سنة ورودي إلى خدمته أنه كان ينقل الحطب على حمار في الليل لعياله، يصلي الصبح في المسجد ويشتغل بالتدريس بقيّة نهاره». وقال: «وكان شيخنا المذكور مع ما عرفت يتعاطى جميع مهمّاته بقلبه وبدنه، حتى لو لم يكن إلا مهمّات الواردين عليه، ومصالح الضيوف المترددين إليه، مضافًا إلى القيام بأحوال الأهل والعيال، ونظام المعيشة وأسبابها من غير وكيل ولا مساعد يقوم بها. حتى أنه ما كان يعجبه تدبير أحد في أموره...».

هذه بعض معالم التوجّه الحضاري لدى الشهيدين. وجدير بنا ونحن نتطلع إلى مستقبل حضاري تعود فيه الحياة إلى هذه الأمة أن نقرأ تراثنا وشخصياتنا وتاريخنا

www.SID.ir

Archive of SID

بنظرة حضارية نستجلي فيها منعطفات منحنى الحركة الحضارية فيما مرّ على أمتنا لبناء مستقبلنا الحضاري الذي يرفعنا ـ بإذن الله ـ إلى مستوى الأمة الشاهدة الوسط على الساحة العالميّة.

www.SID.ir